شكراً .. لمعلم اللغة الإنجليزية!

شادي حامد

إذا طاب لي أن أسرد شيئاً من قصتي التعليمية، فابدأها بالحديث عن المراحل الأولى التي تلقيت فيها تعليمي، والتي اتسمت غالباً بالخوف تارة، وعدم الرغبة والكره تارة أخرى، وما ذلك إلا لقلة وعي المجتمع من حولي، الذي لم يهيئني بطريقة صحيحة ومشوقة للتعليم، فمنذ اللحظة الأولى التي بكيت فيها رافضاً التوجه إلى المدرسة، ما كان من أحدهم إلا وحملني على كتفه مكرهاً لأجد نفسي بين مجموعة من الطلاب والطالبات داخل غرفة الصف الأول الابتدائي، وذلك في خريف العام 1986.

بقيت سنة واحدة فقط في مدرسة الإناث، وذلك قبل أن أنتقل مع بداية العام الثاني إلى مدرسة الذكور التي تبعد مسافة أكبر بكثير من مدرسة الإناث عن منزل العائلة.

وعوداً على بدء، فقد مر العام الأول بذكرياته المختلفة بين ساحات مدرسة قديمة بنيت قبل الاحتلال، ومن غرفة الصف إلى المقصف -الذي لم يخصص له غرفة معينة، وإنما كان حينها على بسطة أسفل الدرج- إلى الساحة -التي ركضنا ولعبنا ومرحنا فيها- إلى غرفة المديرة والمعلمات اللواتي لا أذكر عنهم شيئاً سوى ما يحيط بهن من هالة مليئة بالرهبة والخوف والحذر.

بعد مرور عام كامل في الصف الأول الابتدائي، انتقلنا إلى مدرسة الذكور البعيدة، حيث أمضيت فيها تسع سنوات كاملة حفلت بالذكريات والآمال والآلام ... منذ انتقالي إلى مدرسة الذكور، بدأت أعي الأمور أكثر، كان هناك اهتمام بسيط من عمي وابن عمي اللذين كانا يقومان بإرشادي وتدريسي، حيث كنت أحصل طيلة السنوات التسع على معدل جيد جداً.

ومن المعلمين من ترك في نفسي انطباعات جيدة ورائعة كمعلم اللغة الإنجليزية، الذي درّسنا في الصف الخامس الابتدائي فقط، وكان الصف الخامس هو المرحلة التي يبدأ الطالب فيها تعلم اللغة الإنجليزية، والى لحظة كتابة هذه الأسطر ما زلت أحب اللغة الإنجليزية، وبلا شك أكن احتراماً خاصاً لذلك الأستاذ القدير.

باختصار، كان الدرس الأول في اللغة الانجليزية ممتعاً لدرجة أنني تفاعلت مع الحصة كثيراً، فالأستاذ كان يومها مرحاً ويبسط لنا الأمور، وينفي نفياً قاطعاً أن تكون اللغة الانجليزية صعبة -كما كنا نسمع دائما- ويطري كثيراً على كل طالب يجيب إجابة صحيحة، وبالطبع كنت منهم، وقد تستغربون لو قلت لكم أن الأستاذ كان متخصصاً بالتاريخ وليس باللغة الإنجليزية ....

على العكس من ذلك تماماً كان معلم الرياضيات، الذي جاءنا على حين غفلة، لا أذكر، أفي الصف الخامس أم السادس، والذي ترك جملة من الانطباعات السيئة في نفسي، وحالي مع مادة الرياضيات الآن يشبه حالي مع الأستاذ.

كان أستاذ الرياضيات يتكلم بكلمات نابية وسامحوني لو قلت إنها تخدش الحياء العام أيضاً؛ كنا نضحك كثيراً لأننا لم نسمع بمثل تلك الكلمات من قبل ... وأما حول ما جرى معي؛ ففي أحد الأيام دخل المعلم إلى الصف، وكانت المرة الثانية أو الثالثة فقط، وطلب منا جميعاً أن نخرج له وظيفة بيتية كان قد كلفنا بها، ولكني، ولسوء الحظ، لم أكن قد حضرتها في البيت؛ وعلى الفور أخرجنا إلى ممر المدرسة وقال للمدير «هؤلاء جميعاً سيرسبون هذا العام في صفهم». ويا للهول! فأنا صدمت يومها بما قاله الأستاذ، ولجهلي وبساطتي ظننت أن الأمور هي كما قررها ذلك المعلم، ومن يومها لم أعد أفهم من الرياضيات إلا القليل بل النادر، حتى وصلت إلى التوجيهي ورسبت في مادة الرياضيات.

نسيت أن اذكر أنه من الصف الثاني ابتدائي إلى الصف السادس كنا ذكوراً جميعنا، وأما من الصف السابع إلى الصف العاشر فقد كنا صفوفاً مختلطة، ولكن في المدرسة نفسها.

تسع سنوات مرت وأكثر ما كان يميزها هو العطش الشديد الذي كان يصيبنا نتيجة عدم توفر الماء الصالح للشرب، فكنا نحضر الماء معنا من البيوت، ولكن كثيراً ما كنا ننسى أو ينفد الماء بسرعة، وبسبب بُعد المدرسة عن المنزل، فقد ذقنا مرارة العطش زمناً طويلاً.

وجدت خلال سنواتي التسع دعما نفسياً كبيراً من عائلتي، وهذا الدعم شكل الإضاءة الكبيرة التي مكنتني من تجاوز المراحل الصعبة التي كانت تواجهني . . . .

وأما الزملاء والأصدقاء في تلك الفترة، فمازلنا إلى الآن نتبادل المودة والذكريات، وفي الغالب ترانا وقد ألهتنا همومنا ومشاكلنا وطموحاتنا . . . .

وبعد الصف العاشر انتقلت إلى مدرسة قدري طوقان الثانوية بمدينة نابلس، وكان الانتقال من القرية إلى المدينة بحد ذاته نقلة نوعية وكبيرة شكلاً ومضموناً، وكثير من الأمور في المدينة كانت تسير على العكس تماماً عما كانت عليه في القرية؛ فمثلاً الشعور بالخوف من المعلم لم يعد موجوداً؛ ففي المدارس الثانوية غالباً ما تكون العلاقة بين المعلم والطالب قائمة على الاحترام المتبادل، ولذلك يكون بناء شخصية الطالب في هذه المرحلة أكبر.

ومن أهم العقبات التي واجهتني في المرحلة الثانوية هي رغبة أهلي الملحة في أن أكمل دراستي في الفرع العلمي، ورغبتي الشخصية في أن أكمل في الفرع الأدبي، فانصعت لرغبة أهلي (للأسف طبعاً) فأخفقت في مادة الرياضيات، ثم أعدتها وانتقلت إلى مرحلة الجامعة.

الآن جاء دور الجامعة، وما فيها من تغيرات كبيرة على صعيد نمط التعلم والعلاقة بين المعلم والطالب ودور الطالب نفسه كمؤثر ومتأثر، فأكاد أجزم أن الجامعات عبارة عن جسور تنقل الطالب من مرحلة إلى أخرى، ومن دور إلى آخر، لتضعه في المكان الذي يستطيع من خلاله فهم ما يدور حوله، وكيفية التعامل معه والتأثير فيمن حوله.

الجامعة مثلت بالنسبة لي زلزالاً قلب كل الأشياء، فلم أكن أعرف قبل الجامعة شيئاً عن الإنترنت، والحرية، والاحتكاك المباشر بالجنس الآخر من الطلاب، وإثبات الذات، وبناء الشخصية، والصراعات النفسية الداخلية، وانقلاب مفاهيم الأشياء والشعور بالدخول إلى المجهول.

الجامعة في نظري كانت بمثابة ماكينة عظيمة يدخل إليها الطالب، فتختلط عليه الأشياء، وتكثر المسؤوليات وتثار الشهوات؛ فالسياسة والعلم والنساء والأحزاب والأعباء والهموم كلها تتجاذبك حتى تتخرج من الجامعة، ولا تدري من أين دخلت ولا كيف خرجت؛ ولكنها بالطبع تجربة عظيمة تصنع منك إنساناً قادراً على مواجهة مشاكلك فيما بعد.

تعلمت من خلال الجامعة أن أقول رأيي في الأشياء بصراحة، وأن أحترم الآخرين، واحترم أرائهم، وبقيت الجامعة بذكرياتها الجميلة الحلوة ماثلة أمام عيني، وأتمنى أن أعود طالباً مرة أخرى لأتعلم منها الكثير.

خرجت من الجامعة باحثاً عن عمل، فكان سلك التربية والتعليم من أوسع الأبواب لأمثالي من خريجي فروع العلوم الإنسانية، وكان وما زال لدي رغبة في إيصال تجربتي وما تعلمته للآخرين، متناسياً ما يدور حولي من حديث حول صعوبات التعليم في المدارس، وعن عدم وجود رغبة لدى الطلاب في العلم، وانعدام الثقة والاحترام بين المعلم والطالب، وما يشكله من صعوبات توجه الطالب بشكل مباشر.

تقدمت لامتحان التوظيف الذي كان بالنسبة لي مجهولاً آخر، ولكني اعتدت دخول المجاهل، ولم أتوقع أن يتم تعييني من المرة الأولى، وحملت كتاب التعيين متوجهاً إلى إحدى المدارس الثانوية التجارية، ففاجأني ما وجدت من انزعاج المعلمين من الطلاب، حتى أن زملائي المعلمين أوهموني بأني سأدخل ساحة حرب عند دخولي الصف.

وكانت الصفوف التي أوكلت إلي هي ست شعب توجيهي، وشعبة واحدة أول ثانوي . . . في البداية حاولت أن أرفض تعليم التوجيهي -طبعاً رغبة مني في إنجاح مهمتي- ولكني لم أستطع واتجهت إلى الصف حاملاً كتابي، يسير إلى جانبي نائب المدير، وتتجاذبني مشاعر كثيرة، ولكن الإصرار والشجاعة لم يفارقاني، ودخلت الصف ودخلت معه مرحلة أخرى في حياتي، عانيت فيها الكثير، وتعلمت الكثير، ونجحت في إيصال مضمون المنهاج إلى الطلاب ولكن أيضاً بمعاناة كبيرة.

كانت الصعوبات التي واجهتها في العام الأول بمثابة دورة شاملة أفادتني كثيراً، وأراحتني كثيراً فيما بعد، حيث خبرت الطلاب بشكل عام، وأصبحت لدي قدرة كبيرة على ضبط الأمور وإيصال المعلومة . . . .

وفي بداية العام الثاني، تقدمت بطلب نقل للمديرية التي بدورها نقلتني إلى مدرسة ثانوية أخرى داخل المدينة، وكانت مهمتي هي تدريس طلاب الصف العاشر الأساسي مادة اللغة العربية، فكان الصف العاشر بالنسبة لي هدية كبيرة، حيث وجدت من خلال هؤلاء الطلاب مساحة واسعة أبرز من خلالها قدراتي.

شادي حامد
مدرسة المساكن الثانوية للبنين - نابلس